

الأوضاع السياسية في الجزائر في العهد العثماني (1830-1519)

بإبه عائشة: طالبة دكتوراه / جامعة الجزائر2

إشراف: ا.د. حساني مختار / جامعة الجزائر2

الملخص:

مما لا شك فيه ان الدولة العثمانية وخلال هذه الحقبة مرت بالعديد من المحطات بدءا من تلك الفترة التي تمثل عهد السلطان سليم الأول والتي تحولت من دولة صغيرة إلى دولة تتميز بقوتها وسيطرتها بفضل النجاحات التي حققتها من أوروبا إلى المحيط الهندي مروراً بفترة عثمان بك وأبنائه وأحفاده وقبلهم أبوه ارطغرل وما ساعدهم على هذا التقدم أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل أي شيء، فكان ولاؤهم يتجه بالترتيب إلى: الدين الاسلامي ، السلطان ، الدولة، وفيما يخص الحكم العثماني بالجزائر فبدأت ملامحه تظهر من سنة 1492 بعد سقوط غرناطة آخر معقل للإسلام في اسبانيا ضد الوجود الإسلامي في إسبانيا ، والذي لحقه حالة من التدهور والانهيار والضعف في أوضاع الغرب الإسلامي فقد انتهت دولة الإسلام في الأندلس وتوال بعدها سقوط أقطار شمال إفريقيا في أيدي الغزاة . وفي البحر المتوسط ازدادت عمليات القرصنة الأوروبية وضرب المسلمين في عرض البحر وهو ما تسبب في صدام المسيحيين الغزاة بالعثمانيين الشيء الذي أدى إلى حالة من الاضطراب السياسي، والفوضى العارمة مع بداية القرن ال 16 والتي كانت تعم المجتمع الجزائري في ذلك الوقت، وهو ما أدى إلى ضم دولة الجزائر إلى الممتلكات الخاصة بالسلطان العثماني جاء نتيجة لحرب طويلة خاضها الفلاحون الجزائريون من خلال دعم العثمانيين ضد الاستعباد الإقطاعي، والسيطرة الأجنبية.

الكلمات المفتاحية:

الوضع السياسي، السلطان، الدولة العثمانية، الجزائر.

مقدمة:

في مطلع القرن الرابع عشر نبئت ورسخت جذور الدولة العثمانية كانت هذه عبارة عن إمارة صغيرة داخل حدود العالم الإسلامي تعتمد كل الاعتماد على الفكرة الأساسية التي مبدأها الغزو ضد الكفار المسيحيين.

فقد أخذت هذه الدولة الصغيرة في التوسع بشكل تدريجي التي بدت غير مهمة في ذلك الوقت، وذلك لمدى صغرها في هذه الفترة من التاريخ، فقد قامت بعملية التوسع من خلال إخضاع وضم الأراضي التابعة لبيزنطة في البلقان، والأناضول، وقد أصبحت منذ عام 1517 أقوى دولة في العالم الإسلامي آنذاك حيث قامت بضم المنطقة العربية إليها.

وخلال فترة (1520 – 1566م) تلك الفترة التي تمثل عهد السلطان سليم الأول تحولت الدولة العثمانية من دولة صغيرة إلى دولة تتميز بقوتها وسيطرتها، وذلك بفضل النجاحات المتتالية في الآفاق الواسعة التي تمتد من أوروبا الوسطى إلى المحيط الهندي.⁽¹⁾

عثمان بك:

في عام 656 هـ / 1258م ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية وتعتبر هذه السنة هي السنة التي قام فيها المغول بقيادة الزعيم هولاكو بغزو العاصمة بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت هذه الأحداث عظيمة والمصائب جسيمة، حيث يقول ابن كثير " ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وقني الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الحانات، ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطح، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة"⁽²⁾.
لقد كانت هناك مهزلة كبرى، فقد كانت الأمة ضعيفة بسبب معاصيها وذنوبها لذلك سلب عليهم المغول، فقاموا بسفك الدماء، وهتك الأعراض، وقتل الأنفس، وتخريب البيوت وسرقة الأموال، وفي تلك الظروف العظيمة والوهن الذي ساد مفاصل الأمة، ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية⁽³⁾، ففي بداية القرن الرابع عشر هزت الأزمات الداخلية الكثيرة الإمبراطوريات الكبرى التي كانت تمتد من نهر جيحون (أوكسوس) إلى الدانوب كدولة الإيلخانيين في إيران، والقبيلة الذهبية في أوروبا الشرقية والإمبراطورية البيزنطية في البلقان وغرب الأناضول.

(1) خليل اينالجيک، الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، ط 1، 2002م، ص 9
(2) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي معوض، وآخرون، دار الكتب العلمية (203/13)
(3) علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، شركة الأمل للتجهيزات الفنية، ط 1، 2001م، ص

وفي نهاية القرن نفسه يتمكن أحفاد عثمان، وهو المعروف بمؤسس السلالة العثمانية من تأسيس إمبراطورية تمتد من الدانوب إلى الفرات، ويعود الفضل في هذا الأمر إلى السلطان بايزيد المعروف بلقب " يلدريم "، أي الصاعقة.

فقد قام يلدريم بتشتيت الجيش الصليبي في معركة نيقوبوليس خلال عام 1396م، حيث كان يضم الجيش الصليبي مجموعة من الفرسان الذين تفخر بهم أوروبا في ذلك الوقت، وقام بتحدي سلطنة المماليك التي كانت أقوى دولة إسلامية في هذا العصر، وقام بانتزاع بعض المدن منها التي كانت تقع على الفرات، كما قام بتحدي الحاكم تيمور العظيم " حاكم آسيا الوسطى وإيران"، حيث أنه كان الحاكم الجديد لها.⁽¹⁾

وقد قدمت الدولة العثمانية العديد من أمرائها شهداء في حروبهم مع البيزنط ومن بين هؤلاء الشهداء كوندزالب بك أخو عثمان بك الذي استشهد في عام 1306 م.

حيث بلغت الإمارة التي تركها عثمان غازي في عام 1324 م ، 16000 كم2 فقط ، فإذا ما وضعنا في الاعتبار أن أبا عثمان بك قد ترك له 4800 كم2 من الأراضي فإن 16000 كم2 التي تركها عثمان بك تعادل تقريباً 3/5 أضعاف مساحة الإمارة التي تركها أبوه .

لقد كان عثمان بك استراتيجياً، فلقد قام بتوجيه فتوحاته إلى البيزنط باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته، كما أنه في نفس الوقت تحاشى بكل جهده التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول الذين يحيطون به، كإمارة جيرمان أوغلو القوية.

ولقد كانت فتوحات عثمان بك كانت ذات أهداف، ومغزى شاملاً وصل إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا، واقترب كثيراً إلى مدخل النهر والبحر الأسود، وفي الغرب نفذ إلى البحر حيث قام بالاستيلاء على الضفاف الجنوبية لبحيرة إيزنك من البيزنط وكذلك أخذ الضفاف الشرقية لبحيرة أولوباد، ورصيف مودانيا الذين يقعان بينهما في منطقة متوسطة.

فمن فتوحات عثمان بك :

-اسكي شهر 1288.

-بيله جك 1299 أو 1304 .

-ومودانيه في 1321 .⁽²⁾

نسبة العثمانيون :

إن العثمانيون ينتسبون إلى عشيرة " قايي "، فقد كانت تلك العشيرة من عشائر أتراك "الأوغوز" الذين قاموا بالهجرة من آسيا الوسطى إلى الأناضول .

(1) خليل اينالجيک، المرجع السابق ، ص 13

(2) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة : عدنان محمود سلمان، مج1، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، ط1، 1988م، ص 92-

ويعتبر عثمان الغازي هو أحد الأبناء الثلاثة لأرطغرل غازي حيث كان يلقب بفخر الدين، حيث تذكر الروايات أن والده أرطغرل الغازي أخطر بالأعمال الكبيرة والعظيمة التي سيحققها ابنه قبل موته، فبسبب خبرته في الإدارة واستعداده العالي الذي قد منحه الله إياه أن قام جميع الأمراء بالاعتراف به رئيساً على العشيرة بعد وفاة والده أرطغرل.

فبالرغم من أن عثمان كان أصغر أولاده الثلاثة، إلا أن كل الأمراء قد اعترفوا به رئيساً على العشيرة، وبهذا الأمر فقد اتفقت الآراء أن عثمان الغازي أصبح أميراً على العشيرة.⁽¹⁾

وتميزت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية بالجهاد في سبيل الله، والدعوة إليه في كل الأمور، فقد كان علماء الدين يحيطون بالأمير ويقومون بالإشراف عليه وعلى التنفيذ، والتخطيط الشرعي في الإمارة.

حيث قام عثمان بكتابة وصية له وحفظها التاريخ لنا وهي وصية لابنه أورخان، فقد كان عثمان على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة منهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد موته، وكان مما ذكر في وصيته لابنه أن قال " يا بني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر الله رب العالمين وإذا واجهتك في الحكم معضلة فأتخذ من مشورة علماء الدين موثلاً، يا بني : أحط من أطاعك بالإعزاز وأنعم على الجنود ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة ⁽²⁾، "اعلم يا بني ، أن نشر الإسلام ، وهداية الناس إليه ، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها".⁽³⁾

الملاح الأولى لإمارة عثمان :

لقد اشتركت إمارة آل عثمان مع الإمارات التركمانية الأخرى في عملية نشأتها الأولى، حيث أخذت هذه الإمارات تتميز بالتدرج، وتبرز بين بقية الإمارات الحدودية غربي الأناضول في الفترة ما بين 1280-1310م ، ومن ثم يكون المجتمع القبلي العثماني قد مر في تطوره بمرحلتين هما:

المرحلة الأولى :

تتمثل المرحلة الأولى في دعوة الغزاة " ألب " للغزو والجهاد في الأراضي البيزنطية، حيث وجدت هذه الدعوة استجابات عديدة من القبائل التي كانت في المناطق الحدودية، حيث لعب الأمير والقائد الغازي دوراً كبيراً في عملية تشكيل مجموعة خاصة مع رفاقه الغزاة اكتسبت بالتدرج وضعاً خاصاً

⁽¹⁾ عثمان نوري طوباش ، العثمانيون رجالهم العظام ومؤسستهم الشامخة ، ترجمة : محمد حرب، دار الأرقم للنشر، ط1، 2016م، ص 25 - 26

⁽²⁾ علي محمد محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص49، عصمت عبد المجيد بكر، المدخل لدراسة النظام القانوني في العهدين العثماني والجمهري التركي، دار الكتب العلمية، ص10، سيد باغجوان ، شيخ الإسلام ابن كمال باشا وأراؤه الاعتقادية ، دار الكتب العلمية، ص26.

⁽³⁾ علي محمد محمد الصلابي ، المرجع السابق ، ص50، إيناس حسني الهيجي ، تاريخ الدولة العثمانية، مركز الكتاب الأكاديمي، ص55 ، مؤيد أحمد غازي تاريخ الدولة التركية، المكتبة الجندرية، ص22، علي محمد محمد الصلابي ، كفاح الشعب الجزائري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2017م، ص138.

داخل العشيرة حيث انفصلت هذه الفئة عن بقية أفراد القبيلة الذين قاموا على شئون الزراعة وتربية الحيوانات في ذلك المجتمع القبلي.

المرحلة الثانية :

ارتبطت تلك المرحلة بعملية توحيد فرق الغزاة تحت قيادة واحدة قد فرضت نفسها من خلال ما قامت بتحقيقه من إنجازات وفتوحات، وانتصارات، حيث وصلت هذه المجتمعات التركمانية في هذه الفترة لمستويات كبيرة من مستوى الإمارات التي تقوم برعاية الأمور السياسية بين قادة الغزاة.⁽¹⁾ وتختلف المصادر التاريخية العثمانية في عملية تحديد دور الشخصيات العثمانية التاريخية، فبينما تنسب بعض التواريخ إلى أرطغرل قيامه ببعض الغزوات وتحقيق الانتصارات العسكرية، يرى آخرون أن هذا الجيل لم يكن ناشطاً لا سياسياً، ولا عسكرياً، فعلى الأقل بعد قدومهم إلى بيثينيا يروى "أبز" أنه في عهد أرطغرل، وبعد انتقال القبيلة إلى بيثينيا لم يكن هناك أي قتال، أو حروب عسكرية، فلقد كانوا ينتقلون بين مراعى الصيف والشتاء فقط .

فمن الواضح أن سعى العثمانيين من أجل التنافس السياسي لم يبدأ إلا مع عثمان، فالظروف التي دفعت القبيلة من أجل المشاركة الفعالة في الأمور السياسية للتخوم، وبالتالي إلى السجلات التاريخية، قامت حوالي سنة 1290 كما اقترح توغان، فالأكيد إذأ أن القبيلة قد تمتعت بارتقاء عظيم في مستوى نجاحاتها العسكرية السياسية تحت قيادة عثمان. لذلك كان اسم عثمان وليس أي اسم آخر من أسلافه هو المعرف للإمارة، فلا نعرف بأي اسم عرفت قبيلته قبل قدومه، ولكن العثمانيين "اتباع عثمان"، فإن القبيلة والإمارة نعتنا بهذا الاسم لمدة طويلة.⁽²⁾

قيام الدولة واتساعها :

لقد أتاحت لأرطغرل فترة سلام طويل استطاع خلالها أن يقوم بعملية تدعيم وتوطيد حكم العشيرة على الأراضي التي وكل إليها أن يحكمها، ثم استغل عثمان هذه الفترة من أجل أن يقوم بالاستعداد لفترة الفتوح التي توجت أواخر حياته، ولا تتوفر لنا قرائن معاصرة من شأنها أن تعيننا على الحكم الشامل على عثمان، فهو لم يكن ابن أمير ولم يعتد على أنه حاكم لدولة صغيرة جداً، ويبدو أن إنجازاته قد اقتصرت على عملية إرساء قواعد الأسرة وبدء التوجه نحو عملية توسيع رقعة الدولة في البداية على حساب البيزنطيين مع تفضي الاصطدام بالدول التركمانية العظيمة التي كانت تجاوره حتى أتى الوقت الذي يشهد فيه ساعد الدولة بحيث يمكنه خلالها أن يواجههم بقوة جيشه وعتاده. فقد بدأت الفتوحات الفعلية له في أوائل القرن الرابع عشر حين أدى الانهيار النهائي لدولة السلاجقة إلى استلائه على قلعتي إسكي شهر وقرجة حصار، فمن الواضح أن عثمان كان شخصية

⁽¹⁾ سيد محمد السيد محمود تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، مكتبة الآداب، ط 1، 2007م، ص 83 - 84

⁽²⁾ جمال كفادار، تكوين الدولة العثمانية، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، مج 11، ع 41 - 42، 1999م، ص 60

جذابة تقوم بإغراء الآخرين بخدمته، كما أنه تحلى بالمثابرة وضبط النفس والهيبة، ورغم حماسه الدينية فقد اتصف بالتسامح.

فلقد عين عثمان الموظفين اللازمين من أجل إقامة شعائر الإسلام ومن أجل تطبيق الشريعة فقد وطم سلطته على أساس العدالة، فما لبث أن قام بتوسيع رقعة دولته التي وصلت إلى "بني شهر"، وبذلك أصبح على مرمى البصر من بروسية ونيقية حيث يعتبروا من أهم المدن اليونانية في غربي الأناضول، فما لبثت بني شهر أن أصبحت عاصمة للملكه وبذلك فقد توفرت له قاعدة قوية للانطلاق صوب بروسة القسطنطينية.⁽¹⁾

فلقد كان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل أي شيء، فكان ولاؤهم يتجه بالترتيب:

أولاً: الدين الإسلامي.

ثانياً: السلطان.

ثالثاً: الدولة.

لقد كانت روح الجهاد الغالبة على العثمانيين هي روح الجهاد الديني الذي كان يغلب على إسلام العثمانيين، فلقد زادوا صلابة وقوة عندما استقروا في الأناضول على حدود أو على مقربة من الكيانات المسيحية التي كانت متناثرة في هذا الإقليم في ذلك الوقت.

فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين فلقد كان شعارهم الصحيحة من أجل الحرب وحمل السلاح، وازدادت هذه الروح ناراً عندما واجه العثمانيون التكتلات الصليبية المتعاقبة الواسعة النطاق التي كانت تضم العديد من الدول الأوروبية.⁽²⁾

لقد أظهر الأمير عثمان قدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة؛ مما ساعدها على توطيد تطورها، ومركزها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى، وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك.

ونشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للأناضول على حافتي العالم المسيحي، والعالم الإسلامي، وقد فرضت عليها سياسة حربية معينة، ذلك أن هذه الإمارة كانت على الحدود والثابت في تاريخ الأناضول أن الإمارات التي نشأت على الحدود كانت أوفر نصيباً من عوامل التطور والنمو من إمارات الداخل.⁽³⁾

⁽¹⁾ أحمد عبد الرحيم مصطفى، أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط2، 1986م، ص 36 - 37

⁽²⁾ عبد العزيز محمد الشناوى، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة، د. ط.

1980م، ص 10

⁽³⁾ إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان، ط1، 1996م، ص 12 - 13

وعلى أثر ازدياد قوة العثمانيين وبدء فترة الحروب الكبرى لجأوا إلى وسيلة جديدة تعمل على زيادة أعدادهم، وتوفير فئة خاصة شديدة الولاء للدولة، وهذه الوسيلة تسمى " الدوشرمة " والدوشرمة تعنى جمع عدد من أطفال دار الكفر وإعدادهم من أجل المهام الإدارية والقتالية بعد تحويلهم إلى الإسلام، ويعتبر هؤلاء الأطفال دعامة استندت عليها القوة العثمانية، فسلطة العثمانيون لم تستند إلى أي أساس شعبي، أو تفوق عرقي، بل كانت نوعاً من الحكم المستبد الذي تباشره أسرة واحدة تقوم بالاستناد على قوة عسكرية من المدنيين قوامها رجال الخدمة السلطانية الذين كانوا يتميزون بالإخلاص للسلطان، وقد ملأ أطفال الدوشرمة بعد تعليمهم، وتدريبهم صفوف فرقة الانكشارية وقوة الخيالة النظاميين، ومن خلال اتساع الدولة كان الأتراك يشكلون الفئة المهيمنة على حين أن أطفال الدوشرمة كانوا يشكلون قمة جهاز الحكم ويقومون بالسيطرة على الأتراك ذاتهم.⁽¹⁾

لقد كان العثمانيون أكثر الإمارات الحدودية تواضعاً حتى أنه لا يمكن أن يطلق عليهم اسم مدينة ويرجع سبب ظهورهم إلى سببين رئيسيين:

السبب الأول :

هو سبب جغرافي سياسي يدخل في إطار ضربات الحظ الاستثنائية التي لا يمكن أن تتكرر، فقد أتاحت الظروف لأرطغرل بك وطناً في جنوب شرقي بحر مرمرة وكأنه على مدخل البيزنط، وبهذا الأمر فقد كان أرطغرل أقرب أمير من حدود بيزنط ولم يكن سواه من الأمراء الحدوديين في مثل هذا الوضع الخطير، فقد جعل هذا الأمر أنه على العثمانيين أن يتخذوا الحذر الدائم، والمستمر، وأن تكون دولتهم على أهبة الاستعداد من أجل القتال والجهاد والغزو في كل لحظة، وهو موقف يبرره أن اكتساح الروم لمثل هذه الإمارة بوضعها الجغرافي كان من الناحية الجغرافية يسهل اكتساح غيرها من الإمارات .

السبب الثاني:

وهذا السبب يمثل الخصائص النفسية والجسمية لأرطغرل بك، ونسله الذي جاء من أخلاط إلى دومانيچ، فلا يمكن وجود داهية لدى الإمارات التركمانية في الأناضول الغربية إدارياً وعسكرياً عدا أيدين أوغلو أو مور بك أما الآخرون فلا يزيد على كونهم مجموعة من القادة يقومون بواجبهم على الوجه الأكمل .

وعلى خلاف هذا الأمر فقد كان الوضع بالنسبة للعثمانيين، فلقد أنجبت مجموعة من الدهاة المتعاقبين وكل حاكم من الحكام قد اعتلى العرش قد تفوق على من كان قبله بإمكاناته وخصائصه كما أنهم تميزوا بالقدرة على التخطيط والحركات العسكرية المحسوبة.⁽²⁾

⁽¹⁾ أحمد عبد الرحيم مصطفى، المرجع السابق، ص 41

⁽²⁾ يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص 90

وعندما أعلن السلطان عثمان استقلال الدولة العثمانية الإسلامية في عام 699هـ أتاه من كل حذب وصوب علماء وأعيان وأمراء السلاجقة التي قد انهارت بدافع الجهاد تحت لوائه من أجل أن تصبح الدولة العثمانية المتنفس الوحيد للحماس الديني الإسلامي، فجاء كل راغب في الجهاد في سبيل الله من أجل نشر تعاليم الدين ونشر الدين الإسلامي في البقاع المتعددة، فلقد جذبت هذه الإمارة العديد من الأشخاص الذين تحمسوا لنصرة دين الله تعالى ضد المسيحية، وهذا إنما يؤكد على أن الدولة العثمانية كانت إسلامية المنطق والهدف، فكان الغزو والجهاد عاملين مهمين في عملية تأسيس وتطوير الدولة العثمانية القوية.

فالمجتمع في إمارات الحدود قد صاغه إطار فكري خاص قد أشبعه بفكرة الجهاد المستمر، والفتح الدائم في سبيل إعلاء كلمة الله، حتى تشمل العالم بأسره، فلقد كان التركمان الرحل القادمون إلى الأناضول عبارة عن القلب النابض في المقاطعات الحدودية العثمانية، هؤلاء قد جاهدوا بلهفة في سبيل النصر، أو الشهادة، وقد تربوا تربية إسلامية مليئة بالقيم الروحية المبينة على حب العمل وحب الجهاد من أجل نشر الإسلام في البلاد المسيحية وصد الغارات الصليبية المعادية للإسلام والأمة الإسلامية، ويتجلى هذا الاتجاه في سياسة العثمانيين وتشجيعهم للجهاد من أجل نشر دين الله تعالى (1).

تأسيس الحكم العثماني بالجزائر:

يعتبر سقوط غرناطة سنة 1492م إذاناً بنهاية الوجود الإسلامي في إسبانيا بعدما أسس فيها المسلمون أعظم حضارة على مر التاريخ، وبعد سلسلة من حروب الاسترداد التي قادتها الممالك المسيحية الإسبانية ضد الوجود الإسلامي في إسبانيا وحتى في سواحل شمال إفريقيا، والذي لحقه حالة من التدهور والانهيار والضعف في أوضاع الغرب الإسلامي فقد انتهت دولة الإسلام في الأندلس وتوال بعدها سقوط أقطار شمال إفريقيا في أيدي الغزاة.

وفي البحر المتوسط ازدادت عمليات القرصنة الأوروبية وضرب المسلمين في عرض البحر وهو ما تسبب في صدام المسيحيين الغزاة بالعثمانيين، حيث ارتبط هذا الوضع بظهور الأتراك العثمانيين في البحر المتوسط، وتقدمهم نحو سواحل إسبانيا الشرقية، وكذلك سواحل شمال إفريقيا، فقد كان العثمانيون يمثلون الإسلام وعرفت الحروب التي قامت بينهم بالجهاد البحري ومن هنا بدأت أولى ملامح العلاقات العثمانية بالدولة بالجزائر، لقد كانت السفن العثمانية تنخر عباب البحر الأبيض المتوسط بقيادة بحارة عثمانيين سوف يلعبون دوراً مهماً في المستقبل خصوصاً في ربط شمال إفريقيا بالدولة العثمانية. (2)

(1) خلف بن دبلان بن خضر الوزيناني، الدولة العثمانية والغزو الفكري حتى عام 1909م، جامعة أم القرى، ط2، 2003م، ص 31 - 32، يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988م (88/1).

(2) سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر (1671 - 1830)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر، 2012م، ص 12 - 13.

لقد عرفت الجزائر مع بداية القرن ال 16 حالة من الاضطراب السياسي، والفوضى العارمة التي كانت تعم المجتمع الجزائري في ذلك الوقت ويدل على هذه الفوضى ما عبرت عنه الشواهد الآتية:
- انتشرت الفوضى في كل مكان، حيث كان سكان الولايات قسنطينية وسكان مدينة الجزائر، وأهل الغرب الوهراني لم يبقوا معترفين بسلطة عليهم.
- في أواخر القرن ال 15 كانت وهران تبدو وهي في ظل حكم السلطة الاسمية لبنى زيان في صورة جمهورية تجارية حقيقية مستقلة.

- أما مدينة بجاية فقد كانت في نفس ذلك العصر تكتسب ثروة طائلة وبصفة مستقلة من التجارة الواسعة التي كانت تتعاطاها مع البلاد الإيطالية ومن القرصنة.

- كانت مملكة تلمسان تشمل بصفة غير محددة الغرب الجزائري الحالي وكان رجال الدولة في أواخر القرن الخامس عشر قد تحرروا من السلطة المركزية فكان أدعياء الملك لا يجدون صعوبة في عملية جمع الأنصار من أجل محاربة السلطان القائم، وكان الأبناء يثورون، ويقومون بخلع آبائهم كما أن الأبناء في ذلك الوقت كانوا يحاربون بعضهم بعضاً من أجل اقتسام ملك أبيهم.
ففي ظل هذه الأمور فقد تدهور الاقتصاد، وعمت الفتن، والفوضى في أوساط المجتمع الجزائري، فدخل الناس في حالة من الهرج والمرج.⁽¹⁾

إن التدخل العثماني لم يكن في المغرب العربي أمر متوقع ولم يكن يدور هذا الأمر في أرجاء الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أن التدخل لم يكن نتيجة وتصميم عثمانيين، بل لقد حكمت الظروف التي كانت تسود تلك الفترة في المغرب العربي بعد غزوات الإسبان المتكررة على السواحل وظهور عروج من أجل الدفاع عنها، وإنقاذ المسلمين من سيطرتهم حتى وفاته .

فقد تسلم أخوه خير الدين السلطة من بعده وطلب من السلطان العثماني سليم الأول أن ينطوي تحت سيطرة حكمه نتيجة المبادرة التي اشترك فيها أهل الجزائر، فالمبادرة لم تكن سوى رد فعل على التدخل الإسباني، وبعد أن استقرت الأمور، توحدت الجزائر، وأصبحت دولة تحكم كأي دولة كبرى.⁽²⁾

إن عملية ضم دولة الجزائر إلى الممتلكات الخاصة بالسلطان العثماني جاء نتيجة حرب طويلة خاضها الفلاحون الجزائريون من خلال دعم العثمانيين ضد الاستعباد الإقطاعي، والسيطرة الأجنبية، حيث لعب العثمانيون في المغرب للمرة الأولى دوراً عسكرياً وسياسياً كبيراً وملحوظاً في عام 1486 عندما وصل أسطول كمال رئيس بأمر من بايزيد من أجل مساعدة المسلمين الإسبان، ومنذ ذلك الوقت ظلت السفن العثمانية ترسو في مياه غرب البحر الأبيض المتوسط تقوم بعملية القرصنة

⁽¹⁾ محمد السعيد قاصري، مقارنة تاريخية بين نظام الحكم العثماني في الجزائر وبين نظام الحكم في دولة الأمير عبد القادر، المجلة التاريخية الجزائرية، ع3، 2017م، ص 89

⁽²⁾ مؤيد محمود حمد المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518 - 1830، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج5 ع 16، 2013م، ص 413

ضد السفن التجارية الأوروبية، أو تنقل الأسلحة إلى الموريسكيين وأحياناً تدافع عن الموانئ الأفريقية الشمالية ضد هجمات الغزاة الأوروبيين.

فلقد كان بعض البحارة العثمانيون يعملون في خدمة الباب العالي مباشرة فيما كان البعض الآخر يعمل في خدمة سلطان تونس الحفصي، وغيره من الحكام المحليين، ففي أكثر الأوقات كان الرياس (القباطنة) العثمانيون يتصرفون بمبادرة ذاتية تماماً وكثيراً ما كانوا يعملون كقراصنة باسم السلطان الحفصي، أو السلطان العثماني.⁽¹⁾

إنه من الصعب التأكد من تاريخ محدد لدولة الجزائر التابعة في عملية التحول إلى ولاية عثمانية عادية، حيث يمكن القول بأن هناك عدد كبير من المؤرخين لا سيما مؤرخي المدرسة الفرنسية، لا يلاحظون هذا الفارق ويكتفون بالتركيز على مجرد حقيقة الفتح العثماني للجزائر في سنة 1519.

أما المؤرخون الأتراك المعاصرون فيعتبرون المسألة عبارة عن نتيجة لتلك الزيارة التي قام بها خير الدين بربروس إلى اسطنبول، حيث يذكر أن هذه الزيارة لقبت بـ "الزيارة التاريخية"، ويذكرون أن زيارة خير الدين بربروس كانت الهدف منها: الإعلان عن قرار الجزائر الطوعي بالانضمام إلى السلطنة العثمانية، فمهما كانت صحة هذا الأمر فإن هذا الحدث كان له تأثير كبير وبالعالمية على مصير البلاد، حيث أصبحت الجزائر تابعة رسمياً إلى السلطنة العثمانية.⁽²⁾

لقد كان الجزائريون طيلة فترة الجمهورية الجزائرية العثمانية يتبارون أتراكاً وعرباً في أعمال الخير المختلفة والمتنوعة، فكانت أعمال الخير تشمل الأوقاف الطائفة على المدارس والمساجد، والمنشآت العامة، وكانت دور العلم عامرة وحلقات الدروس خاصة بالطلاب في كل مساجد المدن الكبرى.⁽³⁾

لقد أعطى الحكم العثماني للجزائر اسمها الحديث الذي بدأت تعرف به منذ ذلك الوقت، بعدما كان مقتصرراً فقط على المدينة التي أصبحت مركزاً للحكومة العثمانية، وقام العثمانيون بإدخال مفهوم الحدود السياسية إلى المغرب العربي الحديث بعد عملية القضاء على الفوضى الداخلية التي كانت منتشرة في أغلب أنحاء الجزائر. وتوحيد القوة من أجل مواجهة الخطر الأوروبي المحيط بهم.

لقد أعلنت تبعية الجزائر رسمياً للدولة العثمانية من خلال عملية منح خير الدين لقب بيكليك، أو بايلر باي بمعنى أمير الأمراء ونائب السلطان والعامل باسم الباديشاه، وبهذا الأمر تكونت ولاية الجزائر ودعي للسلطان العثماني على المنابر، وضربت العملة باسمه، وقامت إدارة الجزائر بالخضوع لإدارة خاصة ضمن منظومة أوجاقات الغرب.⁽⁴⁾

لقد كانت القرصنة تشكل أساس الأوجاق الغربي، وكانت غزواتهم تعتبر من أنواع الجهاد البحري ومن خلال اتحاد رياس البربر مع الرياس الأتراك غدت البحرية العثمانية قوة ضاربة، ففي

⁽¹⁾ نيقولاى ايفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 - 1574، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، ط1، 1988م، ص 95

⁽²⁾ نفسه، ص 109

⁽³⁾ أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، د. ط، 1984م، ص 73 - 76

⁽⁴⁾ مؤيد محمود حمد المشهداني، المرجع السابق، ص 416 - 417

بادئ الأمر قام الرياس بتوجيه اهتمامهم بالدرجة الأولى من أجل عملية إنقاذ المسلمين من ظلم الإسبان والقضاء على التجارة الإسبانية في البحر وضرب سواحلها وإلحاق الضرر بها .

وبهذه المهمة الجهادية لم يعد بإمكان أي إنسان مقارنة نفسه بواحد من الرياس الجزائريين بسبب أنهم كلوا أعمالهم بالنصر، والنجاح وأثبتوا وجودهم حتى النهاية، وأوقفوا خلال المعارك في الصف الأول كما حدث في ضم تونس، وحرب مالطة و لييناتو، فكسبوا بشجاعتهم العالية ومواقفهم الإنسانية النبيلة ثقة الجميع وعمت الشهرة كافة الأرجاء .

لقد أعطى الجزائريون أهمية كبيرة لسفنتهم وعملوا باستمرار على تطويرها، وتنظيمها واعتمدوا عليها في معظم حروبهم، فالأضرار التي ألحقها الرياس بأعداء تركيا يستحيل تقديرها، وحساب النتائج التي ترتبت عنها.

إن ما قام به الرياس الجزائريون في سبيل الإسلام مشابه لما فعله فرسان سان إتيان من أجل المسيحية، فقاموا بمهاجمة سفنهم التجارية، وأحرقوا مدنهم الساحلية، وأسروا سكانها، وخرّبوا ما استطاعوا، لكنهم عاملوا النساء والأطفال معاملة طيبة .⁽¹⁾

ومن الجدير بالذكر فإن البلاد الجزائرية كلها على البحر الأبيض المتوسط ولها ساحل صخري في الغالب يمتد نحو 1200 كيلو متر، فيما بين تونس ومراكش ويكاد هذا الساحل يسير على خط مستقيم ليس به كثير من الخلجان، فطبيعة الأرض الجزائرية مرتفعة، حيث تتميز بأن فيها سهولاً ضيقة شاسعة الغنى بديعة الحسن تنحصر بين الجبال وساحل البحر ووراء هذه السهول الساحلية تمتد مجموعة من جبال الأطلس من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فإذا ما انحدرت من هذه الجبال المتواصلة رأيت نفسك في إقليم "النجد" الذي يتميز بأنه مترامي الأطراف والذي يبلغ ارتفاعه نحو 800 متر.

أما ناحية الجنوب فهناك سلسلة من جبال الأطلس الصحراوي التي تخترق القطر بأسره من شرقه إلى غربه، كأنها عبارة عن سد منيع قد تم إحكام صنعه من الله عز وجل ليحول دون عملية تسرب رمال الصحراء إلى إقليمي: النجد، والأطلس التلي.⁽²⁾

الإدارة العثمانية في الجزائر:

لقد تميز الأتراك العثمانيون في الجزائر بهيمنة عظيمة، ومطلقة شملت الجيش والاقتصاد مع تهميش كبير ناحية السكان، وإبعاد السكان نهائياً عن أمور النيابة وإخضاعهم للضرائب والغرامات المالية، فظل النظام الجزائري قابلاً تحت سلطتهم منعزلاً عن كل ما يحيط بهم من تمثيل للحكومة

⁽¹⁾ عزيز سامح التر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود على عامر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، 1989م، ص 148 – 150.

⁽²⁾ أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 11- 12

لدى القوى الأوروبية، ومنع ذوى الصلة بهم كالكراغلة، أو العنصر التركي العثماني قبل أن يبعدوا في عهد الدايات وذلك لأسباب سياسية الأمر الذي أدى إلى تهيش الجزائريين .

فلقد أخذ الأتراك استقلالهم الذاتي، وأن السلطة كانت تعبر عن مصالحهم وما علاقتهم بالدولة العثمانية سوى علاقة تبادل منافع وتضامن في مواجهة العدو المشترك على الرغم من أن الدول الأوروبية كانت تتعامل مع الجزائر على أساس أنه عبارة عن ولاية عثمانية كانت تقوم بإرسال سفرائها إلى عاصمة الدولة العثمانية وتقوم بإرسال القناصل إلى الجزائر.

فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية كانت تعتبر سكان الجزائر رعاياها، إلا أن السلطة الحقيقية في الجزائر كانت بيد أتراكها، وأن هذه السلطة كان لها القدرة على إبرام معاهدات مع بلدان أخرى دون الرجوع إلى السلطان، فإن ما حصل في تونس من تونسمة النظام بالقضاء على الإنكشارية لم يحصل في الجزائر رغم محاولة علي خوجة⁽¹⁾.

لقد ربط العثمانيون حياتهم بالحضارة الشرقية الأناضولية، وقاموا بنقل معالمها إلى دولة الجزائر التي تمثلت في النظم العسكرية والإدارية، ومعاملاتهم الاجتماعية والاقتصادية وقاموا بالاندماج بالعناصر الأندلسية والكرغلية، والفئات الجزائرية بمختلف مستوياتهم الثقافية والاجتماعية، والمالية بالرغم من الاختلاف في المذهب الديني، والاختلاف اللغوي، والاختلاف في العادات.

ولم يكن المسيحيون الذين دخلوا الإسلام بمعزل عن المجتمع بل قاموا بالاختلاط بأهل المدن في حياتهم اليومية، والحرفية، والإدارية، وحتى اليهود قاموا بجلب صنائعهم ومعاملاتهم التجارية في المجتمع الحضري، الذي أصبح مزيجاً من التراث الحضاري والخلقي، والديني.

إن فاعلية النظام الاجتماعي للجزائر العثمانية قد استندت على القوانين الإسلامية التي جسدها، وقامت بتنظيمها هيئات قضائية حنفية ومالكية وتنظيمات من الأوجاق الإدارية التي كانت موجهة من أجل تحقيق المنافع العامة وذلك بالمؤسسات الوقفية .

إلى جانب ذلك لقد كانت الهياكل العدلية تقوم بتنظيم الشرائع الاجتماعية عبر القضاة الحنفية والمالكية، وبعض الموظفين والانكشارية الذين كانت لهم صلاحيات في عملية تنفيذ القوانين، وتحقيقها بين أفراد المجتمع المدني، والحرفي من أجل توفير الأمن وإقرار الأحكام التي تتعلق بالقصاص، والعقاب والفصل في أمور المنازعات والمحافظة على المعاملات الإسلامية والعادات والأعراف الجزائرية وبالتالي حافظت على الاستقرار الاستهلاكي، والصحي للمجتمع .⁽²⁾

⁽¹⁾ فاطمة دخية، الحركة الأدبية في الجزائر خلال العهد العثماني، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2015م، ص 12.

⁽²⁾ حسان كشرود، رواتب الجند وعامة الموظفين وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بالجزائر العثمانية من 1659م إلى 1830م، تخصص التاريخ الاجتماعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر، 2008م، ص 19 - 20.

لقد حاول العثمانيون استرداد الجزائر بالقوة في أوائل 1835م عندما جاء كتاب من القائم بالأعمال العثماني في باريس إلى نوري أفندي، وفيه يقوم بذكر أن هناك كلمات قد قيلت وتنادي بكون الجزائر تابعة لفرنسا في البرلمان الفرنسي، ويرجو السفير أن يكتب متن مذكرة من أجل أن يقدمها لوزير الخارجية الفرنسي.

أحضر نوري أفندي مذكرة تبين حق العثمانيين في الجزائر وقام بإرسالها إلى باريس حيث قدمها روح الدين إلى وزير الخارجية عام 1835م بعد أن قام بترجمتها إلى الفرنسية، إلا أن رئيس المترجمين في الوزارة المذكورة قام بإعادتها بعد ثلاث أو أربع ساعات لروح الدين أفندي مخبراً إياه أن الوزير لن يستطيع أن يقبل مذكرة كهذه المذكرة.

لقد كان رفض فرنسا المذكرة العثمانية قد دفع نوري أفندي من أجل التقابل مع سفير روسيا من جديد، وعندما اطلع هذا الأخير على متن المذكرة أبان أن أحسن تصرف هو عملية إرسال صورة عن المذكرة إلى اللورد بلمرستون وطبقاً لهذه النصيحة تقابل السفير نوري أفندي مع وزير خارجية إنجلترا في جويلية 1835 شارحاً له رفض الوزير الفرنسي للمذكرة التي قدمها القائم بالأعمال العثماني في باريس، إلا أن اللورد رد عليه بأنه يكون من الأفضل أن لا يبحث مطلقاً في الوقت الحاضر شيئاً بهذا الشأن.

فلقد فهم أن استرداد الجزائر من فرنسا بالمباحثات السياسية فقط غير ممكن، فأيقن بذلك أن عليه أن يسلك طريقاً أخرى من أجل استردادها.⁽¹⁾

العلاقات بين العثمانيين والجزائريين :

يعتبر الحكم العسكري العثماني في ظل فترته في الجزائر هو السائد، وهو الذي كان يميز الحكم في ذلك الوقت في جميع أنحاء الدولة العثمانية آنذاك.⁽²⁾

مراحل الحكم العثماني في الجزائر.

مر الحكم العثماني في الجزائر بالعديد من المراحل، ومن ذلك:

فترة البايبربايات (1519 – 1587):

يبدأ عصر البايبربايات ببداية تاريخ إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية في سنة 1519م وتعيين خير الدين بايلرباي عليها من قبل السلطان العثماني من خلال تزويده بقوة عسكرية وأسلحة وذخائر، فقد جاء هذا التعيين من أجل أن يدعم سلطة خير الدين في البلاد، فقام باتخاذ مركزه في مدينة الجزائر.

⁽¹⁾ أرجمنت كوران ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ترجمة : عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، د.

ط، 1970م، ص 87 - 88

⁽²⁾ أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، دار البصائر للنشر والتوزيع ، ج 1 ، ط 1 : ص 141 - 142

وتم تعيين أحمد بن القاضي الغيريني سلطان جبل كوكو على بعد 18 كم من أربعاء "نايث ايرائن" حاكماً على بلاد القبائل والناحية الشرقية فلم يرتج الحفصيون والميرينيون من أجل هذا الأمر، وأخذ كل واحد يدبر المؤامرات ضد خير الدين ونظامه، فالإسبان من جانبهم قد نظموا ضده حملة عسكرية قادها "قودومونكاد" ونزلت بوادي الحراش في شهر أوت 1519م، ولكنها قد أصيبت بهزيمة شديدة، وفقد الإسبان أسلحتهم وعتادهم وكان من ضمن أسباب هزيمتهم تأخير عملية الإمدادات من الزيانيين المتحالفين معهم من تلمسان.

وظن الإسبان أن عملية رحيل خير الدين سيعمل على تسهيل احتلال الجزائر، وطرد حلفائه منها فقاموا بالتركيز على موانئ تونس، واحتلوا الكثير منها وشارك في النزاع ضدهم خير الدين نفسه، ثم رأوا أن يضربوا الجزائر نفسها، فقاموا بإعداد حملة كبيرة قد استغرق إعدادها عدة أشهر، وقادها ملكهم شارل كان نفسه، فقد نزل بجهة حسين الداوي في عاصمة الجزائر يوم 23-10-1541 وكان مصيرها الفشل مثل باقي الحملات السابقة.⁽¹⁾

وفي عام 1521م تمكن خير الدين من السيطرة على القل، ثم عناية وقسنطينة في سنة 1522م، وقام بوضع حاميات من الانكشارية قدرت بنحو 200 جندياً من الجنود في المدينة الأولى، و600 جندياً في المدينتين التاليتين يرأسهم ضباط يسمون العسكر، لقد كان قائد الحامية القسنطينية يسمى يوسف حيث أعطى الحرية في عملية اتخاذ السياسة التي يراها مناسبة مع السكان، وحثه خير الدين على عملية تحسين علاقاته بالسكان خاصة وأن قسنطينة يصعب تموينها من البحر، ويتحتم تموينها عبر الأسواق المحلية؛ لذا فقد ربط القائد يوسف علاقة جيدة مع الشيخ الفكون (الجد) الذي مكنه من الاتصال بأولاد يعقوب الذواودة الذين يتحكمون بمناطق واسعة بقسنطينة وتعهدوا بتزويد الأتراك بالمؤن مقابل عملية الحصول على البارود بصفة كافية.

بعد عملية انسحاب خير الدين من تونس عقب استنجد الحسن الحفصي بشارل لكان عام 1535م، عرجت قواته إلى قسنطينة، ولكن تم منعها من عملية الدخول، فقام القائد يوسف، والشيخ الفكون بالتدخل، وقاموا بإقناع الجيش بمحاولة التمرکز خارج المدينة والحصول على ما يكفي من المؤن لهم، وعندما عين حسن أغا ساردوا قبطاناً على البحرية العثمانية خلفه حسن قورصو بايلر باي على الجزائر وقد وضع عدة حاميات تركية في أماكن مهمة بقسنطينة ما بين 1540 و 1541 وفي زمورة، برج بوعريج، ومسيلة، بويرة.

(1) يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، د. ت، 17/2 - 18

ولقد لعب الصراع بين القبائل دوراً مهماً في عدم استقرار الترك بالمنطقة وتوصلت الأطراف المتنافسة إلى حل بان يستقر الحنانشة شرق البلاد والذواودة غربها، وتم تعيين بوعكاز بن عاشور على الذواودة شرق قسنطينة وعبد العزيز من قلعة بني عباس على مجانة عام 1542 م.⁽¹⁾

فترة الباشوات (1587 - 1659):

لقد تم تغيير نظام الباييرباي بنظام الباشوات بعدما ارتأت الدولة أن تقوم بإدخال مجموعة من التعديلات على الحكم الجزائري، حيث وجدت أن ولاية الجزائر أصبحوا يحكمون القطر حكماً مطلقاً، ويقومون بالتصرف في شؤونه بكل حرية رغم اعترافهم بسيادة الباب العالي عليهم، حتى طمع بعض الولاة في عمل مملكة تضم المغرب الإسلامي، فقد حاولوا وضع حد أمام سلطة جيش الانكشارية المجندين من بلدان الأناضول من خلال الاعتماد على الفرق المجندة من القبائل الجزائرية من العرب وغيرهم ولكن طموحاتهم لم يطمأن لها الحكام العثمانيون في اسطنبول، فقاموا بتغيير النظام من خلال أسلوب جديد في الحكم وهو نظام الباشوات الجديد، فقد اقتضى ذلك حذف البايير باي الذي كان يحمله حاكم الجزائر وصاريلقب بالباشا.

إن الدافع الكبير الذي أدى إلى عملية استحداث نظام الباشوات هو الرغبة الشديدة في عملية إحكام سيطرة العثمانيون على البلاد ومنع حدوث التمرد ضدها، لكن الأمور قد سلكت مسلكاً مغايراً تماماً، فلقد بدأ ديوان الأوجاق يزداد نفوذه وتزداد سيطرته خلال هذا العهد، وتدرج من أجل التخلص من سيطرة العثمانيين وتلاقت جهوده مع جهود الباشوات من أجل تجسيم هذا الاتجاه وإبرازه.

فلقد شجع الباشا خضر طائفة الرياس من أجل الغزو البحري، وسعى من أجل وضع حد للامتيازات التي كانت تخص التجار الفرنسيين في ساحل عنابة والقالا، وقام بالأمر بهدم المركز التجاري لديهم وأسر الأشخاص المشتبه في أمرهم.

لم يستطع خلفه أن يعالج الموقف كما تريد الدولة العثمانية؛ لأن الديوان قد عارض أوامر وتعاليم السلطان التي حملها إليه مبعوثه الخاص الأعيا مصطفى القابجي، القاضي بإعداد المركز الفرنسي، وإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين.⁽²⁾

عندما تم الفتح المبارك وسافر الباشا سنان قام الانكشارية بعده فضبطوا ملك تونس وقاموا بتمهيد قواعده، وقاموا أيضاً بتدعيمها، فتمكن بذلك بتمكين قدمهم ورسوخها واستمرت البلاد بأيديهم خلفاً بعد سلف، وقاموا بإصلاح ما فسد من أسوارها وقلعتها، وقاموا بجعل دار الإمارة بها وهي المعبر عنها بدار الباشا.

⁽¹⁾ حسين بوخلوة عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته وآثاره، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة

السانية - وهران، الجزائر، 2009م، ص 4

⁽²⁾ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 35

وجعلوا أيضاً دار الديوان من أجل أن يرسم بها عند التشاور في أمور البلاد، وسنوا لهم مجموعة من القوانين التي يتميزون بها وأجروا في أمرهم الأحكام على قانون الجزائر، فجعلوا المتصرف في البلاد دولاتياً، والمتصرف في أمور المرتبات ودفعها والنظر في أمور العامة من الساحات والإقطاعات، وما ينضاف إلى ذلك هو الباشا الوارد من الأعتاب العثمانية، فكلما ذهب باشا خلفه باشا ولا يكون إلا بتولية الأعتاب العثمانية، وجعلوا نظر العساكر لأعتابهم وجعلوا ولاية لجمع الجبايات. وقاموا بتدوين الدواوين وخرج الولاية لجباية الأموال على مقتضى تلك الدواوين، وجعلوا تفرقة المال الذي تجبيه البايات على العساكر في دار الباشا على مقتضى مراتب العساكر، فانتشرت الأعلام والأحكام في أقاليم إفريقيا، وخطب الخطباء باسم السلاطين العثمانية، وضربت السكة باسمهم وتوجهت الآمال نحوهم وانضافت إفريقية إلى السلطنة العثمانية.⁽¹⁾

لقد اتسمت مرحلة الباشوات بانتشار الفوضى، والاضرابات السياسية لتحديد فترة الحكم فيها إلى ثلاث سنوات، فلقد انكب الولاة المعينين من طرف الأستانة على جمع الأموال؛ إما إثراء لأنفسهم، أو من أجل تعويض ما صرفوه من أموال من أجل شراء هذا المنصب إلى حد قد جعل زمام السلطة ينفلت من أيديهم لصالح الانكشارية التي أخذت تقحم نفسها في الشؤون السياسية العليا في البلاد وهي عبارة عن أمور لم تكن من اختصاصهم مما أدى إلى تدمير الأهالي من هذا التسبب الإداري. أدى هذا الأمر إلى انتفاضة تلمسان 1627م التي تلتها انتفاضة الكراغلة الأولى عام 1629م – 1630م، والثانية عام 1633م؛ ليشهد الجنوب الجزائري تمرداً شعبياً هو الآخر دام قرابة عشر سنوات في الانتفاضة التي عرفت بـ"ابن الصخرى"، ويضاف إلى تمرد أولاد عبد المؤمن بقسنطينة وأولاد مقران بمجانة عام 1643م.⁽²⁾

فترة الأغوات (1659 – 1671):

لقد دخلت الجزائر مرحلة جديدة هي مرحلة تسمى بالأغوات، فبعد أن اعتلى البوكباشي خليل رأس السلطة في الجزائر بعد تمرد الانكشارية على الحكم في الجزائر بشكل كامل في مواجهة الباب العالي، حيث إنه بعد سيطرة الانكشارية على الحكم في الجزائر حدثت مجموعة من التطورات الخطيرة أثرت على السلطة العثمانية، فقد شملت هذه التطورات على مدة حكم الأغا التي لم تتجاوز السنتين على أن ينظر الديوان في أموره بعد ذلك، بالإضافة إلى حصر نفوذه وتحديد مسؤولياته ومهامه.

لقد كان لقب الأغا يعتبر لقباً تشريفاً للحاكم، وعملية تفخيم لسلطته، بل هو لقب فخري يفتخر به، بينما كان الديوان هو الحاكم الأساسي والحقيقي؛ لذلك كثرت عمليات الاغتيالات نتيجة

⁽¹⁾ محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1988 م، عدد الأجزاء: 2، 85 - 86

⁽²⁾ كوثر العايب، العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، 2014م، ص 9 – 10.

للتآمرات والمكائد التي كانت تدبر نحو الحكام، لقد أثر هذا الأمر بشكل كبير على استقرار أوضاع الحكم في الجزائر، وأدى ذلك إلى ضعف القوة العسكرية؛ نتيجة لتعرضها للعديد من الضربات الأوروبية الصعبة والثورات الداخلية.

كل هذه الأمور أدت إلى إدخال البلاد في حالة عارمة من الفوضى، فلم يستقر أغا واحد في الحكم أكثر من سنة، بل اشتد أكثر من ذلك، حيث أدت حالة التمرد من الانكشارية والأهالي إلى تغيير أكثر من خمسة أغوات خلال سنة 1671م، وهو ما أدى إلى عودة رياس البحر إلى الواجهة وإمساحهم بزمام داخل الإيالة؛ خوفاً من ضياع امتيازاتهم، وثرواتهم في البلاد، فقاموا بإلغاء نظام الأغوات، وتعيين واحداً منهم كحاكم وأعطى لقب الداوي، حيث كان أول داي يحكم من رياس البحر هو الحاج محمد التريكي⁽¹⁾.

لقد أدت مجموعة من العوامل إلى خلق أزمة مالية شديدة، حيث لم تكن موارد الخزينة في ذلك الوقت كافية لسداد رواتب الجنود الانكشارية، فلقد بذل إبراهيم باشا جهداً جباراً في عملية جمع الأموال من خلال طرق غير شرعية من خلال ابتزاز أغنياء الدولة، وفرض العقوبات والغرامات الإضافية على التجار والحرفيين وكل من يمكنهم الدفع، غير أنه لم يفلح في مسعاه، لقد اشتد غضب الانكشارية على إبراهيم الذي عجز عن دفع مستحقاتهم، فلم يمهله، بل قاموا برمييه في السجن في 1659م، خاصة أن ذلك قد صادف قدوم علي باشا الذي عين حديثاً من طرف الباب العالي.

فلقد حمل الوالي الجديد معه فرماناً يأمر الجزائريين بتجهيز، وإرسال عمارة بحرية إلى المشرق، مع عملية تعويض مالي مقابل مشاركتهم في عمليات حرب كريت، لكن الوالي قد وجد نفسه حرج جداراً، إذا كان الانكشاريون في حالة أقرب من الهيجان ينتظرون بفارغ الصبر دفع رواتبهم المتأخرة في حين كانت الخزينة فارغة، ولما لم يجد بداً، عزم على اقتطاع قسم من المال المرسل لطائفة الرياس، وعلى أثر هذا الأمر، ثارت طائفة علي باشا وتآزم الوضع⁽²⁾.

ويعتبر نظام الأغوات عملية من أجل إيجاد نوع من الديمقراطية داخل الطبقة العسكرية التركية الحاكمة، إذ أن مدة الآغا لا تتجاوز الشهرين ويخلفه في مهامه أكثر العسكريين أقدميه، بالإضافة إلى كون هذا النظام غير واقعي ولا علمي، وأنه يحمل في نفسه بذور الزوال، إلا أنه يتميز بظاهرتين:

الأولى : أنه كان عبارة عن محاولة بارزة من أجل الانفصال عن السلطة العثمانية، والاستقلال بدولة الجزائر.

⁽¹⁾ سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر (1671 - 1830 م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم

الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2012م، ص 34 - 35

⁽²⁾ أمين محرز، الجزائر في عهد الأغوات، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، د. ط، د. ت، ص 77 - 78

الثانية : أنه كان عبارة عن انتقام من طائفة الرياس التي كانت كلمتها هي العليا في عهد معظم الباشوات.

لقد ظهرت بوادر ضعف هذا النظام منذ السنة الأولى من عملية استقراره، فعندما انتهت المدة المقررة لولاية خليل آغا الذي كان أول آغا رفض التخلي عن مهامه، فثارت في وجهه كل طائفة الرياس وفرقة اليولداش وأعدته وعينت مكانه رمضان آغا الذي اغتيل بدوره في شهر اوت من سنة 1661م وقد تولى رمضان آغا بناء المسجد الجديد الشهير بالجزائر وهكذا فقد تبين من أول عهد الأغوات استحالة تحقيق هذا النظام القائم على المساواة المطلقة بين القادة العسكريين.⁽¹⁾

حكم الدايات (1671 – 1830) :

لقد كان الدايات في بداية عهدهم ينتخبون من طائفة الرياس التي قامت باسترجاع نفوذها بعد إلغاء نظام الأغوات، فرغم هذا الانقلاب الذي حدث في نظام الحكم، فإن السلطان العثماني قد استمر في تعيين الباشوات، إلا أن وجودهم في الجزائر كان شرفياً فقط؛ إذ جردوا من كل السلطات. فكان هذا الوضع في صالح الانكشاريين الذين تمكنوا من استرجاع نفوذهم ومكانتهم، فمنذ عام 1689م أصبح الدايات ينتخبون من الانكشاريين لمدة الحياة.

لقد كان منصب الدايات يتولاها في غالب الأمر أحد الشخصيات البارزة في الدولة، وهي الخزناجي والأغا وخوجة الخيل، إلا أن هذه القاعدة لم تكن ثابتة، فقد كان بإمكان أي فرد أن يصل إلى منصب الدايات.⁽²⁾

ويعتبر علي آغا (1665 – 1671م) هو آخر آغا عثماني حكم الجزائر، تم اغتياله سنة 1671م إذناً بذلك نهاية نظام الأغوات الذي امتد فترته من 1587م حتى سنة 1671م، وتنصيب حكم جديد وهو نظام الدايات حيث قام رياس البحر بعد قيامهم بالثورة على الانكشارية بتعيين أحدهم وهو الحاج محمد داياً على الجزائر وبهذا الأمر فقد دخلت الجزائر مرحلة جديدة من نظام حكم العثمانيين وهو نظام الدايات بدءاً من سنة 1671م وصولاً لسنة 1830م.

لقد اخذ الحاكم العثماني في الجزائر بداية من سنة 1671م يلقب بلقب الدايات وهو لقب شرقي فخرى، وتدل هذه الكلمة على القايد أو القائد باللغة التركية وتعني (ألب) أي الخال، وأول من لقب به هو محمد بكطاش، كما أن لقب الدايات كان يطلق على أمراء ولاية تونس، حيث إن سنان باشا كان قد نظم الانكشارية في تونس، وجعل كلاً منهم أميراً، سعى بالدايات وهو لقب يشعره بالعظمة.

⁽¹⁾ مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، د.ط، د.ت، 3/ 172

⁽²⁾، أرزقي شويثام، نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره (1800 – 1830م)، رسالة ماجستير، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب، الإسكندرية، 1988م، ص 19

وقد باشر الدايات مهامهم في الجزائر في السلطة منذ سنة 1671 م ، وأطلق على الداى حسين رايس التريكي لقب دولتى أو (دولتلى)، وسمى خلفه بابا حسن بالدولتى ولقد جمع الداى حسين " ميزوموترو " فى بادئ الأمر بين لقبى الباشا والداى.

يتم تعيين منصب الداى فى الجزائر عن طريق إجراء انتخابات فى حالة ما إذا توفى الداى على سريريه، أو تم قتله وهو ما قد تكرر كثيراً، وقد أجريت هذه العملية فى العديد من المرات وسط منافسة شديدة، فقد كان الدايات فى بادئ الأمر من رجال رياس البحر ولكمهم فقدوا مكانتهم بعد استرجاع طائفة الانكشارية لمكانتهم ونفوذهم فى السلطة فأصبح الداى يتم انتخابه من رجال الانكشارية حيث يمارس من خلالها سلطته بشكل شبه مطلق ويخضع لسلطة الانكشارية رغم كل الصلاحيات والمزايا التي يتمتع بها.⁽¹⁾

وفى عهد الداى حسن أصبحت التجارة فى أيدي اليهود وفى خدمة مصالحهم بالدرجة الأولى، ويرجع ذلك إلى أنهم عرفوا كيف يستفيدوا من الظروف الدولية ويحولونها إلى أداة يقومون باستغلالها من أجل تحقيق مكاسبهم، مركزين بذلك على تقديم معلومات إلى الدايات حول التحركات الأجنبية وتقديم الرشوة إلى الموظفين ومساعدة بعضهم على الوصول إلى مناصب عليا وغيرها من الأساليب التي تعود اليهود على استعمالها.⁽²⁾

لقد كان الداى يتمتع بسلطات محدودة، وصلاحيات تم تحديدها من قبل هيئة الأوجاق، وكانوا يمثلون ضباط الميليشيا التركية الذين كانوا متواجدين فى مجلس الدولة، وكان فى عهده السهر على عملية تطبيق القوانين المدنية والعسكرية والإشراف على حصون المدينة، وتنظيم الجيوش، ومراسلة القبائل المختلفة؛ قصد تهدئتهم والمحافظة على أمنهم، وحماية القبائل من الظلم، والبحث عن السبل التي تكفل تحقيق ازدهارها فيظل السلام بعيداً عن مخاطر الحرب.

ومن صلاحيات الداى أيضاً تعيين الوزراء وغيرهم من أعضاء حاشيته، والإشراف على الشؤون المالية، وتنظيم إدارتها على أحسن ما يرام.

وكان القادة العسكريين لهم سلطة كبيرة فى الديوان، فهم الذين يكونون الديوان، وكان عددهم فى الهيئة ستون، يجتمعون كل يوم فى الصباح فى محل مخصص من أجل الاطلاع على الأعمال الإدارية ومراقبة الحكومة بمقتضى السلطات المخولة لهم بصفتهم هيئة عليا تتكون من قادة الأوجاق، فلا يحصل الداى على مرتبة، إلا منهم وبحضورهم، وهم الذين يقومون بالانتخابات وتعيين العاهل المبعوث من الباب العالي الذي يحمل قرار من جرى تعيينه.⁽³⁾

نهاية الحكم العثماني بالجزائر:

(1) سفيان صغيري، المرجع السابق، ص 39 - 40

(2) بن صحراوي كمال ، الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر فى أواخر عهد الدايات ،رسالة ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية،

المركز الجامعي، مصطفى اسطيمبولي - معسكر، الجزائر، 2008م، ص 133

(3) النظام السياسي الجزائري فى العهد العثماني، أحمد السليمانى، ص 19 - 20

*الثورات الريفية :

لقد عرفت الجزائر في القرن التاسع عشر العديد من الثورات، فكان من أهمها الثورة الدرقاوية التي قادها كل من ابن الشريف، وابن الأحرش في شرق وغرب البلاد.

*ثورة ابن الأحرش :

يعرف لدى العامة بابن الأحرش، أو بالبودالي وأصله من عرب المغرب الأقصى، فقد قيل إن ابن الأحرش قد جمع جيشاً من المغاربة والجزائريين، وانضم إلى الجنود المصريين من أجل محاربة الفرنسيين، وأظهر أثناء المعارك شجاعة كبيرة مما جعله يكتسب شهرة وصيتاً، فبعد أن مكث ابن الأحرش بعض الوقت في تونس انتقل إلى مدينة عنابة على ظهر إحدى السفن الإنجليزية، واستقر به المطاف في مدينة جيجل، وهناك بدأ ابن الأحرش دعوته ويقوم بالإعداد لإعلان الحرب على السلطة الحاكمة في الشرق الجزائري، فقد تمكن من جمع عدد كبير من الأنصار، وكان أول نشاط قام به هو تسليح السفن، وأمر بحارتها بالإغارة على السفن الفرنسية التي كانت تصطاد المرجان في السواحل الجزائرية الشرقية، واستولوا على إحدى السفن الفرنسية، وأسر أربعة وخمسين منهم، وبعد هذه الغزوة الناجحة قرر ابن الأحرش أن يعلن الحرب على السلطة الحاكمة.⁽¹⁾

لقد عرفت مدينة وهران في العهد العثماني العديد من الاضطرابات العسكرية والسياسية والتي كان أطراف النزاع فيها بايات وهران المتعاقبين؛ دفاعاً على السلطة العثمانية، أما الطرف الآخر فهم أصحاب السلطة الدينية، أو الطرق الصوفية والمرابطون المتواجدون في بايلك الغرب.

وتعد ثورة درقاوة من أخطر الثورات والاضطرابات، وقادها عبد القادر بن الشريف، فلقد كان المرابطون والطرق الصوفية هم السلطة الروحية للجزائريين وهذا لما يقدمونه من خدمات تعليمية واجتماعية، وقد جعل هذا الأمر علاقتهم بالسكان علاقة روحية متينة عكس علاقة السكان بالسلطة العثمانية، وينتسب ثوار درقاوة إلى الطريقة الصوفية التي ترجع أصولها إلى الطريقة الشاذلية، حيث ظهرت هذه الثورة في عهد الباي مصطفى المنزالي الذي انهزم في معركة، حين التقى جيش الباي بجيش ابن الشريف الدرقاوي، فانهزم الباي وتراجع إلى مدينة وهران، ثم قام الثوار الدرقاويون بإحكام سيطرتهم على معظم مدن بايلك الغرب، واستولوا على معسكر العاصمة للبايلك بالإضافة إلى مدن مليانة ومازونة، والقلعة، وتلمسان، وتم القضاء على الحاميات التركية الموجودة في تلك المدن.⁽²⁾

لقد بدأ ابن الشريف يعد عدته، وعتاده، وجنوده من أجل أن يشن الحرب على سلطة البايلك في الغرب الجزائري، ويرجع ذلك إلى أنه عندما كان بالغرب الأقصى عند شيخه محمد العربي

⁽¹⁾ أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 89 - 93

⁽²⁾ عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، رسالة ماجستير، كلية العلوم والحضارة الإسلامية، الجزائر، 2014م، ص 58 - 60.

الدردقاوي قال له " ياسيدى أن بوطننا قوماً يقال لهم الترك لا شيء لهم من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس، ولا يميزون بين العلماء والأولياء وغيرهم، نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي؛ ليستريح منهم العباد وتطهر منهم البلاد، فقال له عليك بجهادهم وقتالهم وأن الله ينصرك عليهم ⁽¹⁾ .

فإن الأسباب التي دفعت ابن الشريف إلى القيام بالثورة هي شبيهة بتلك الأسباب التي أدت إلى نشوب ثورة ابن الأحرش في الشرق الجزائري، كما اتبع ابن الشريف نفس الطريقة التي اتبعها ابن الأحرش في عملية جمع الانصار ونشر الدعوة، وقد كان لثورة ابن الشريف عدة نتائج من أهمها: توقف النشاط الزراعي طول فترة الحرب، مما أدى إلى قلة الحبوب، فارتفعت أسعارها، كما خلفت الحروب خسائر بشرية ومادية ⁽²⁾ .

ثورة التجانيين :

إن العداء الذي وقع بين الطريقة التجانية، والسلطة العثمانية بدأ منذ الإعلان عن تأسيسها في عام 1782م، والذي ترجمته المضايقات المتكررة على عين ماضي التي كانت عبارة عن المركز الرئيسي للطريقة، فإن أول حملة ضد الطريقة كانت قائدها الباي "محمد الكبير" باي الغرب الجزائري عام 1784م، وكان هدفها تشديد الحصار على عين ماضي، والحد من نشاط التجاني، وفي العام الموالي قد جهز صالح باي قسنطينة حملة أخرى على عين ماضي، وبعد سنتين قام عثمان باي ابن الباي محمد الكبير بشن حملة أخرى على عين ماضي، فكانت تلك المضايقات الكثيرة وراء هجرة الشيخ أحمد التجاني إلى فاس عام 1798م ، حتى يحافظ على طريقته من الزوال، فلقد كان حريصاً على تقوية طريقته بوطنه من خلال توصية الشيخ صاحبه الحاج على التماسيني بإعادة ابنه إلى ماضي.

وزاد من حدة التوتر والعداء بين التجانيين والعثمانيين أنه عندما ذهب محمد الكبير إلى الحج، سمع الداوي حسين بمغادرته فأمر الباي قسنطينة بإلقاء القبض عليه فور رجوعه من الحج؛ لكنه لم يتمكن من ذلك.

لقد كانت هذه الثورات أحد أهم الأسباب الأساسية لضعف الدولة، والإسراع في عملية إنهاء الحكم العثماني في الجزائر، فلقد كان لهذه الانتفاضات الانعكاس السلبي على ركود الحياة الثقافية والاقتصادية، فقد عمل العثمانيون على تفريق العلماء والطلبة وتعطيل نشاطهم الديني ، فقد كان سوء تعامل الحكام مع هؤلاء وخصوصاً المتصوفة هو الطابع الغالب على تلك المرحلة ⁽³⁾ . وقد هدفت هذه الثورات إلى وضع حد لاستنزاف خيرات الريف، وتسخير سكانه لفائدة الامتيازات الأجنبية والاحتكارات التي كانت في أيدي اليهود التي كانت تهدف إلى تصدير أكبر كمية من

⁽¹⁾ أرزقي شويتم، المرجع السابق، ص 100.

⁽²⁾ نفسه ، ص 100 - 107

⁽³⁾ سعاد عقاد، الفلاحون الجزائريون والسلطة العثمانية في الجزائر (1519 - 1830 م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، الجزائر، ص 138 - 141

المواد الأولية، والحبوب التي يقوم بإنتاجها الريف بأسعار زهيدة في فترة كانت فيها المجاعة والأمراض تعصف بالسكان، وذلك بأمر من الداوي مصطفى باشا الذي مكن التجار اليهود، ومنهم (بكري بوشناق) من تصدير كل احتياطي الحبوب في الشرق الجزائري إثر موت الداوي محمد عثمان باشا، وقتل صالح باي 1792م، وتولى حكام متعاملين مع التجار الأوروبيين واليهود على حساب المصالح الحيوية للإيالة الجزائرية.⁽¹⁾

لقد عرفت السلطة العثمانية ضعفاً كبيراً في أواخر عهد الدايات بسبب حالة عدم الاستقرار التي نتجت عن كثرة الاغتيالات، وكثرة المؤامرات، فلقد شملت تلك المؤامرات السلطة، وأجهزة الحكم والموظفين الساميين، والمساعدين لهم أيضاً وشهدت الأقاليم الإدارية الأخرى نفس الظروف من الفوضى، وعدم الاستقرار بحيث تعرض العديد من البايات إلى القتل، والثورات من طرف السكان بسبب سوء التسيير وتفاقم الأوضاع من سوء إلى الأسوأ وهو ما أدى إلى اندلاع العديد من الثورات ضد الحكام الأتراك عبر مختلف أرجاء الجزائر.

فلقد اتسمت سياستهم بالتعسف وإرهاق الناس بالضرائب الذي أدى إلى ظهور الحركات التمردية الكثيرة التي تزعمها شيوخ القبائل، ورجال الطرق الصوفية التي ازداد نفوذها وخطورتها؛ خصوصاً وأن حكام الأتراك لم يجدوا بداً من نقض عهده معهم بسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة، فهمشوهم وحاولوا استغلالهم مثل باقي الرعية.

كذلك كان للتدخل الأجنبي من طرف فرنسا وبريطانيا في عملية تغذية التمرد الأثر البالغ في حدوث ثورات ضد الحكم العثماني في الجزائر، فقد عملت فرنسا على دعم، وتشجيع القبائل الناقمة على السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر انطلاقاً من الشرق الجزائري وذلك من خلال مدها بالأسلحة والذخيرة، وعملية التحريض على الثورة والتمرد فكان دور قنصليتها التي كانت متواجدة في الجزائر الدور الكبير في هذا الأمر، كما أنه لا يمكن تجاهل الدور الذي قامت به تونس في الشرق والمغرب في الغرب في عملية تدعيم الثورات و التمردات ضد الحكام العثمانيين في الجزائر، رغم محاولة الدولة العثمانية التوسط من أجل فض النزاع لأكثر من مرة.⁽²⁾

لقد عرفت الجزائر العثمانية في أواخر حكم الدايات أوضاعاً متردية سردها الكتابات التاريخية سببها الرئيسي النظام السياسي الفاسد، فقد ساد الاستبداد المطلق في الريف والمدن، وأثر هذا الأمر على مستقبل البلاد في كافة نواحي الحياة.⁽³⁾

تكاثر الأزمات :

⁽¹⁾ سعاد عقاد، المرجع السابق، ص 142

⁽²⁾ سفيان صغيري، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر (1671 - 1830م)، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر، 2012م، ص 145 - 148.

⁽³⁾ بلبروات بن عتو، المدينة والريف بالجزائر في أواخر العهد العثماني رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008م، ص 1 - 2.

شهدت الجزائر في أواخر العهد العثماني العديد من الاصطدامات بين حكام بايلك قسنطينة وبين الانكشارية راح على إثرها معظم البايات الذين حكموا بعد مقتل صالح باي، فمن بين 19 بايا حكموا في الفترة ما بين 1792 و 1826م قتل 13 بايا وعزل الباقي، كما شهدت المنطقة ثورة محلية كبرى كادت أن تنهى الحكم العثماني بالبلاد قبل الاحتلال الفرنسي، وهي ثورة ابن الأحرش عام 1804م والتي تسببت في فوضى عارمة بالبلايك بعد قتل الباي عثمان كما أنها تسببت في المجاعة الكبرى التي ضربت البايك في تلك السنة حتى صار السكان يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح اقتيائه . كما أن قسنطينة قد تعرضت في هذه الفترة إلى حصار شديد قد دام شهراً كاملاً من طرف باي تونس حمودة باشا وكان سنة 1807م الأمر الذي زاد من تأزم الأوضاع العسكرية والاقتصادية ببلايك . فقد استمر تدهور الأوضاع في قسنطينة وأريافها حتى سنة 1808م.⁽¹⁾

ويرجع تدهور الأوضاع في الجزائر في بداية القرن التاسع عشر إلى سوء تصرفات الداوي مع قناصل الدولة الأوروبية في الجزائر، وتلفه على المال، ومعاونة خزينة الدولة من أمور زيادة الأسعار في الغلاء وغلاء المواد المجهزة المستوردة، وبخس أثمان المواد الأولية التي يتم تصديرها، بالإضافة إلى صعوبة تنمية الموارد الداخلية للبلاد وتعدد الانتفاضات الشعبية والاحتلالات، فلهذه الأسباب تمكن الجيش الفرنسي من محاصرة الجزائر واحتلال سيدي فرج يوم 14 جوان والاستيلاء على العاصمة يوم 5 جويلية 1830م .

ونتيجة لاضمحلال المدخول المالي للدولة؛ أبدى الداوي وحكومته اهتماماً شديداً بالشؤون الداخلية للبلاد، وصمم على تعويض المداخل من الغنائم والهدايا بمداخل محلية يتحمل أعباءها سكان الجزائر وكان من تلك المداخل:

- الإيجار الذي يدفعه الفلاحون مقابل استثمارهم للأراضي التي تملكها الدولة .
- الزكاة التي كانت تفرض على الحبوب والماشية والأموال.
- اللزامة: وهي ضريبة استثنائية تدفع كمساهمة من المواطنين في نفقات الجيش والدفاع عن الوطن .
- العشور وهي الضرائب على المحصول.

فلقد كانت النتيجة الحتمية لزيادة الضرائب هي تزايد السخط الشعبي على حكم الداوي، وتهرب السكان من عمليات دفع الضرائب جملة واحدة ، وقيام الثورات الشعبية في العديد من النواحي بالبلاد وهذا ما يفسر الانهيار السريع للنظام التركي بالجزائر.⁽²⁾

-لقد شهدت العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال الفترة العثمانية استقراراً نسبياً، وكانت فرنسا هي أول دولة حصلت على امتيازات تجارية لها بالسواحل الجزائرية خلال مطلع القرن السادس عشر،

⁽¹⁾ جميلة معاشي، الانكشارية والمجتمع ببلايك قسنطينة في نهاية العهد العثماني رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2008م، ص 231 - 232.

⁽²⁾ عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962 م ، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م، ص 79 - 80

وبذلك أصبحت هذه تلك الامتيازات هي الإطار العام للعلاقات بين البلدين كما أنها كانت السبب الأساسي فيما بعد إلى حدوث الكارثة المؤلمة في الجزائر، وكان هناك العديد من الأسباب التي كانت سببا في تفكير فرنسا في احتلال الجزائر، ومن ذلك:

1-اهتمام فرنسا بالجزائر ورغبتها في الحصول على الامتيازات السواحل الجزائرية مثل عناية وسكيدة.

2-موقع المغرب العربي الهام على وجه العموم والجزائر بوجه الخصوص مما جعلها محطة أنظار الدول الاستعمارية خصوصا بعد ضعف الدولة العثمانية .

3-تطلع فرنسا إلى ضرب الأسطول الجزائري، والحد من سيطرته البحرية، لاسيما أن مؤتمر فيينا في عام 1815م كان قد قرر وضع حد للقرصنة الجزائرية بالبحر الأبيض المتوسط.

ومن خلال ما سبق شنت فرنسا حملتها العسكرية على الجزائر، والتي توجت بفرض حصار عسكري على مدينة الجزائر استمر لمدة 3 سنوات من يونيو 1827 إلى يونيو 1830 م ، وفي مقابل هذا قام الداي حسين بتدمير المكاتب الفرنسية الموجودة في عناية والقالا، وفي شهر 1829م فكرت حكومة بوليناك على ضرورة تنفيذ مشروعها من أجل غزو الجزائر، لكن تلك الخطة فشلت بسبب أنها اكتشفت من قبل سلطان المغرب الأقصى، وانجلترا وهكذا نجد أن حكومة بوليناك قد قررت في شهر 1830م إرسال حملة عسكرية إلى الجزائر.

وبررت الإدارة الفرنسية إرسال الحملة بأن الداي حسين قد أهان شرف فرنسا، وكذلك من أجل وقف القرصنة الجزائرية وتخليص أوروبا من القلق والاضطراب في البحر الأبيض المتوسط ، فعلى العموم كل هذه المبررات كانت تهدف على ضرورة إقناع الرأي العام الأوروبي والفرنسي بضرورة احتلال الجزائر⁽¹⁾.

وعلى الرغم من تلك الأسباب السابقة، إلا أن السبب الرئيسي للقضاء على الحكم العثماني في الجزائر، والاحتلال الفرنسي لها يرجع إلى أسباب سياسية وأخرى دينية، وذلك كما يلي:

الأسباب السياسية :

وتتمثل الأسباب السياسية في اعتبار حكومة الرياس في الجزائر تابعة للإمبراطورية العثمانية التي بدأت تنهار، والدول الأوروبية تنهياً من أجل الاستيلاء على الأراضي التابعة لها خصوصا أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون على غنيمة تقدر ب 150 مليون فرنك كانت موجودة بخزينة الداي، كما أن شارل العاشر ملك فرنسا كان يرغب في خلق تعاون بين روسيا حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية في البحر المتوسط والتمركز في ميناء الجزائر الذي كان يعتبر في نظر الملك الفرنسي تابعا للإمبراطورية العثمانية المنهارة، وكان للمعارضة التي سيطرت على مجلس النواب في انتخابات نوفمبر

⁽¹⁾ أكرم بوجمعة، أوضاع الجزائر مع مطلع القرن العشرين، مجلة كلية التربية للعلوم التربوية والإسلامية، جامعة بابل، ع 28، 2016م،

1827م قد خلقت مصاعب داخلية للملك الفرنسي الذي كان يعتقد أن الحل الوحيد من أجل إسكات المعارضة هو عملية إحراز انتصار باهر على داي الجزائر.

الأسباب الدينية :

من الأسباب الرئيسية لاحتلال فرنسا للجزائر الصراع الذي كان قائماً بين الدول المسيحية الأوروبية والدول العثمانية الإسلامية فقد انعكس على الجزائر؛ لأن الأسطول الجزائري القوى يعتبر في نظر الدول المسيحية الأوروبية عبارة عن امتداد للأسطول العثماني الذي كان يهيمن على منطقة المشرق العربي، فالتعاون الوثيق بين الدولة العثمانية الإسلامية والدولة الجزائرية المؤيدة لها في عملية الدفاع عن حوزة الإسلام قد دفع بالدول المسيحية في أوروبا أن تتعاون فيما بينها من أجل ضرب المسلمين في استانبول والجزائر.⁽¹⁾

وخلاف لما سبق كان لمحمد علي دور كبير في القضاء على الدولة العثمانية في الجزائر، حيث إن محمد علي باشا يعتبر من صنائع مكائد الغرب وعميلاً مدسوساً من عملائهم بدأ من وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي على الأخص تخطيط فرنسي أو كان من نتائج ذكاء محمد علي ومكره وثقافته أو الأمرين معاً .

ولقد احتوت الدول الغربية محمد علي، وأخذت تقوده في ركابها خصوصاً وأن فيه من الصفات والخلال التي ينشدها المستعمرون كجنون العظمة، وغلظة القلب وفظاظة الطبع ورقة الديانة وعدمها، وقد كان محمد علي يكره مسلمي مصر ويحتقرهم، وكان متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر حتى أنه هم بعد أن جاءته الأوامر أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص، إلا أن الفكرة قوبلت بالرفض، حيث إنها ستعمل على تهبيح المسلمين وتثيهرهم، فقاموا بإلغائها واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغالل.⁽²⁾

(1) عمار بوحوش، المرجع السابق ، ص 83 - 86

(2) علي محمد محمد الصلابي ، المرجع السابق، ص 501